

الانتماء للاستبعاد في دوار هيشر: العزلة وكلمات السرّ



معهد غرب آسيا وشمال أفريقيا، حزيران ٢٠١٩



تم إنتاج المادة في هذا المشروع من قبل معهد غرب آسيا وشمال أفريقيا (WANA)، والذي تم دعمه من قبل الجمعية الهولندية للبحوث العلمية، بتفويض من وزارة الخارجية الهولندية، وتطوير من قبل منصة معرفة الأمن وسيادة القانون.

يعكس المشروع آراء المؤلفين وليس بالضرورة وجهة نظر الجمعية الهولندية للبحوث العلمية.

شروط إعادة النشر:

لا يجوز إعادة نشر أي معلومات من هذا المشروع كلياً أو جزئياً وبأي وسيلة دون موافقة مسبقة من معهد غرب آسيا وشمال أفريقيا ومؤسسة الياسمين للبحث والتواصل. للحصول على موافقة المعهد يرجى مراسلة قسم الاتصال على البريد الإلكتروني: info@wana.jo

نُشر بواسطة معهد غرب آسيا وشمال أفريقيا، الجمعية العلمية الملكية، عمان – الأردن.

الباحث: ماهر الزغلامي والباحث المساعد حلمي التومي.
تصميم الغلاف: معهد غرب آسيا وشمال أفريقيا (WANA).

طُبِع في عمان، الأردن.
جميع الحقوق محفوظة لمعهد غرب آسيا وشمال أفريقيا، الأردن. © ٢٠١٩
صنع في الأردن.

جدول المحتويات

1	مقدمة	2
2	الانتماء للاستبعاد أو الاستبعاد الذاتي	3
2.1	تمظهرات الانتماء للاستبعاد	4
2.1.1	في الأمن الصلب معاداة الجهاز التنفيذي	4
2.1.2	في العزلة المجالية والاعتزال اللهجوي	4
2.1.3	في الاعتزال العقلي: المخدرات والجريمة	6
2.1.4	في التدين الموازي أو الاعتزال التديني	6
3	التوصيات	8

الانتماء للاستبعاد في دوار هيشر: العزلة وكلمات السرّ

” مَاهُمْ كَيْفَنَا مَاَنَا كَيْفَهُمْ
حتى كيفنا موش كي كيفهم
حتى إحدينا موش كي إحديتهم

نَحْنَا إِنشِيحُوا بِالْأَرْطَانِ وَاللَّعْبَةِ مَعَهَا نَبْنَا-كُولُ
هُومَا إِنشِيحُوا بِالْعَيْرِ وَالْبَيْضِ وَأَعْتَى أَنْوَاعِ الْكُولُ
هُومَا إِنْسَافُرُوا وَقَتِ مَا إِنجَبُوا لُونُو أَحْمِرُ الْبَاسِبُورُ
نَحْنَا إِنطِيحُوا وَقَتِ مَا إِنجَبُوا فَمَا الْحَاكِمُ وَالْمَرْطُولُ¹.

1. مقدمة

تندرج هذه الورقة ضمن سياق بحثي يسعى لتطوير سبل ناجعة لتعزيز جهود منع التطرف العنيف عن طريق ربط آليات الوقاية من التطرف العنيف ومكافحته بتفعيل مقاربات الأمن الإنساني وبرامجه طويلة الأمد. وهو محور الدراسة التي تنضوي تحت مشروع ”نحو سبل أكثر فاعلية لمقاربات الأمن الإنساني في الأردن ولبنان وتونس“، والذي يُنفذ في كل من تونس والأردن ولبنان بتمويل من المنظمة الهولندية للبحث العلمي، بإشراف من معهد غرب آسيا وشمال أفريقيا (الأردن) وبالشراكة مع مؤسسة الياسمين للبحث والتواصل (تونس) والمركز اللبناني للدراسات، وبالتعاون مع منظمة ميرسي كور والمعهد العربي لدراسات الأمن. ينفذ المشروع في ثماني عشرة منطقة في الدول الثلاث، وقد تم اختيار ست مناطق من تونس لتنفيذ هذه الدراسة وهي قرطاج، منزل بورقيبة، دوار هيشر، تبرسق، جربة، بن قردان.

ضمت عينة البحث في دوار هيشر تسعين مشاركاً يتوزعون حسب متغيّر النوع إلى 49 ذكراً و41 أنثى. وتضم العينة ما يأتي من الممثلين: المسؤولون الحكوميون المحليون والجهويون، مكونات من المجتمع المدني، ممثلون عن القطاع الخاص، ممثلون عن المنظمات الدولية، أئمة وفاعلون في الشأن الديني، إلى جانب ممثلين عن الفئات الأكثر عرضة للهشاشة الاقتصادية والاجتماعية. تعكس الورقة وجهات نظر مختلف المشاركين وهي مستخرجة من ورشتي عمل و8 لقاءات فردية وحلقات نقاش مركزة تم إجراؤها في الفترة من تموز 2018 إلى شباط 2019.

ويهدف المشروع بمجمله إلى استطلاع آراء وتوجهات المجتمعات المحلية حول أثر وعلاقة برامج الأمن الإنساني بجهود منع التطرف العنيف في مناطقهم من جهة، وأثر السياسات الأمنية المتبعة على تنفيذ برامج الأمن الإنساني وعلى نجاعة

¹ أغنية راب شعبية (تلطي ومصطفي)، الشرح:
ليسوا أمثالنا ولسنا أمثالهم،
حتى مزاجنا ليس كمزاجهم،
حتى كلامنا ليس ككلامهم،
مدامنا دواء أعصاب وقتب هندي ولصق اصطناعي،
ومدامهم الهيرويين والكوكايين وأعلى أنواع الخمر،
هم يسافرون أتى يشاؤون بجواز سفر دبلوماسي،
ويقبض علينا متى أحببنا منا الشرطي والمزطول.

جهود مكافحة التطرف من جهة أخرى. حيث يُقدّم المشروع في أوراقه الختامية اللاحقة نظرية تغيير حول تعزيز العلاقة الثلاثية بين برامج الأمن الإنساني والسياسات الأمنية لغايات منع التطرف العنيف.² ويجب التنويه إلى أن الظواهر المحلّلة ضمن هذه الورقة لا تعكس بالضرورة وضعاً عاماً، ولا يراد عبر التطرق إليها بالرصد والتحليل إطلاق وصوم على منطقة دوار هيشر.

تعتبر منطقة دوار هيشر بولاية منوبة من أكثر الأحياء الموصومة وصماً اجتماعياً سلبياً مرتبطاً بانتشار ظواهر العنف والتطرّف إلى جانب منطقة حي التضامن. تأسست دائرة دوار هيشر سنة 1988 بعد أن كانت مندمجة مع دائرة منوبة؛ منوبة – التضامن. ثم وقع تقسيمها من جديد إلى دائرتين؛ التضامن ودوار هيشر. ثم قُسمت مرّة أخرى إلى دائرتين؛ دوار هيشر وحي خالد بن الوليد.³ يبلغ عدد سكانها 84090 ساكناً متوسط معدل أعمارهم 31.76 سنة. تبلغ فيها نسبة الأمية 19.61%، ونسبة البطالة 19.15%. أما عن القطاعات المشغلة بالمنطقة فأهمها الصناعات المعملية التي تشغل 24.04% أكثرهم إناث يشتغلن في وضعيّة هشّة اجتماعياً. في حين يتجه الذكور بشكل أكبر لأعمال البناء والأشغال العامّة التي تحتوي نسبة 17.92% من نسبة المشتغلين.⁴

2. الانتماء للاستبعاد أو الاستبعاد الذاتي

أكدت مخرجات العمل الميداني الذي تم إنجازه بمنطقة دوار هيشر نتيجة بحثية توصلنا إليها في بحوث سابقة،⁵ في مناطق مشابهة نسبياً مثل منطقة بوسلسلة والبحر الأزرق ومنطقة حي ابن خلدون. حيث أدّى الاستبعاد المسلط الذي مورس في هذه المناطق إلى حالة من الانتماء الشديد القائم على الإحساس بعدم الانتماء، أو الاستبعاد المؤلّد لردود فعل عنيفة كالإدمان والجريمة والعدوانية.⁶

ويمكن تعريف الاستبعاد تعريفاً مزدوجاً يتّخذ شكلين أساسيين: استبعاد مُسلط واستبعاد ذاتي. إذ إنه غير متركّز في نطاق الفقر والتفقير فقط، بل يتّسع ليشمل الاستقطاب والتفاوت وعدم المساواة. إلى أن يغدو أحد أشكال الانغلاق الاجتماعي بتعبير ماكس فيبر، وعدم الاندماج، فلا يتعلق الأمر بمواقع الأفراد -فوق أو تحت- بقدر ما هو خاضع لشكل هندسي آخر متعلق بالوجود في دائرة ما -داخل أو خارج- بتعبير آلان توران، داخل أو خارج دائرة الفعل السياسي، داخل أو خارج دائرة الفعل الاقتصادي، داخل أو خارج دائرة الفعل الثقافي.⁷

² لمزيد من المعلومات حول المشروع، انظر صفحة المشروع على <http://wanainstitute.org/ar/project/towards-more-effective-human-security-approaches-context-emerging-threat-violent-extremism>

³ المعهد الوطني للإحصاء، التعداد العام للسكان والسكنى 2014، (تونس: المعهد الوطني للإحصاء، 2015)، ص 47.

⁴ اعتمدنا الأرقام الرسمية الواردة في ولاية منوبة عن طريق التعداد العام للسكان والسكنى لسنة 2014، الصادر عن المعهد الوطني للإحصاء بتاريخ 1 نيسان 2016، متوفرة على الرابط: <http://www.ins.tn/ar/publication/%D9%85%D9%86%D9%88%D8%A8%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%85-%D9%84%D9%84%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%83%D9%86%D9%89-%D9%84%D8%B3%D9%86%D8%A9-2014>

⁵ في الدراسة الميدانية حول منطقتي بوسلسلة والبحر الأزرق في سياق اللامركزية ماهر الزغلامي، "حومتنا ديموقراطية"، دراسة غير منشورة أعدتها مؤسسة الياسمين للبحث والتواصل، 2016، وماهر الزغلامي، "الشباب والسلفيات، ملامح الراديكالية الدينية"، في تقرير الحالة الدينية وحرية الضمير سنة 2015، عبد اللطيف الهرماسي (محرراً)، (تونس: منتدى العلوم الاجتماعية التطبيقية، 2015)، ص 125.

⁶ حلقة نقاش مركزة للتحقق، دوار هيشر، 15 شباط 2019.

⁷ جون هيلز وجوليان لوغرمان ودافيد بياشو (محررون)، الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2007)، ص 24.

وبالتالي ففكرة الاستبعاد بمعنى الانغلاق والانعزال كما نتناولها في هذا السياق ليست متأتية من عوامل شخصيّة راجعة إلى تفاوت القدرات الفردية فقط؛ ولا من إرادة سياسية تغييبية محضة؛ ولا من مُعطى طبقي صرف؛ بل هي مجموع كلّ ذلك، وعوامل أخرى نفهم عن طريق تكاملها كيف يجنح المستبعدون إلى العيش في دوائر مغلقة معادية ورافضة للدوائر "الرسمية"، التي استبعدتهم واستبعدت أسلافهم من قبل عبر عملية إقصاء ممنهجة وعنيفة استخدمتها الدولة المحتركة للحكم والتحكّم لقمع كل مظهر من مظاهر التعددية والمشاركة في البناء السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي.

2.1 تمظهرات الانتماء للاستبعاد

2.1.1 في الأمن الصلب معاداة الجهاز التنفيذي

في دوار هيشر تطفو الرواسب التاريخية الاجتماعية للمنطقة (تاريخ الحي أو الحومة التي نادراً ما تخلو من مسجون سياسي أو من خارج عن القانون، تاريخ القمع والتهميش...) كعوامل أساسية مغذية لشعور الانفصال والاستبعاد الذاتي. والعداء لأجهزة الدولة وخاصة منها الجهاز التنفيذي الأمني الذي يتذرّع المستبعدون أسباب الدخول معه في مواجهات مباشرة وعنيفة. تختمر أحياناً بخمار احتجاجي على حدث سياسي ما، وتستغل أحياناً أخرى المناسبات الرياضية لإيجاد فضاء مناسب للمواجهة العنيفة على مدرجات ملاعب كرة القدم،⁸ وتبقى أغرب تمظهرات هذه المواجهات بين الشباب والجهاز الأمني هي مواجهات الجنائز "دفينة العازب" في الأحياء الشعبية حيث يتحول الطقس الجنائزي-الديني- إلى عملية كَرّ وفرّ بين الشباب المستبعد وأعوان الأمن.

إنّ انفصام العلاقة بين الجهاز الأمني الصلب وبين متساكنين من مناطق الاستبعاد هي من أهم مغذيات الانغلاق الاجتماعي المفرز لطواهر عنيفة ومتطرّفة بشكل دائم وهذا ما عبرّ عنه المشاركون بكلّ بوضوح. والذي يمكن تبيّنه أيضاً عبر تقييمهم السلبي لآليات الأمن الصلب ونجاحاتها في محاصرة التطرف العنيف، حيث لم تتجاوز النسبة التقييمية 26% خلال الورشات المجرأة.⁹ كما أنه يمكن القول بحسب أمثلة التصدّع والمواجهات المذكورة أنّ المنطقة المستبعدة تحتوي دائماً على منسوب عالٍ من العنف المخزّن. في حين تتغيّر تمظهرات العنف وردود الفعل، فالشباب المستبعد الذي نعت عون الأمن بـ"الحاكم" أو "الحنش" قبل "تطرفه"، هو نفسه الذي نعت نفس العون بـ"الطاغوت" بعد "تطرفه".¹⁰

2.1.2 في العزلة المجالية والاعتزال اللهجوي

يعكس التوسع غير المبرمج لمنطقة دوار هيشر عجزاً في مستوى التخطيط الحضري للمدينة. وهو ما يعد من أكبر المشاكل والمعوقات التي تعرقل تنزيل مقاربات الأمن الإنساني، إن توفرت إرادة تنزيلها بعدد. فالمناويل الحضريّة المتطورة هي المحامل الأساسية لمقاربات الأمن الإنساني إذ لا يمكن تصور هذه المقاربات خارج مناويل ومخططات حضريّة البتة.

⁸ مشاركة/ة في ورشة العمل، دوار هيشر، 3 تشرين الثاني 2018.

⁹ مشاركة/ة في ورشتي العمل، دوار هيشر، 19 تشرين الأول 2018 و3 تشرين الثاني 2018، وانظر أيضاً محمد علي كردي وحلمي التومي، تقرير مختبر السياسات لهذا المشروع في تونس، 7 آذار 2019، متوفرة على الرابط:

[http://wanainstitute.org/sites/default/files/files/%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B1%20%D9%85%D8%AE%D8%AA%D8%A8%D8%B1%20%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA%20%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3\(4\).pdf](http://wanainstitute.org/sites/default/files/files/%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B1%20%D9%85%D8%AE%D8%AA%D8%A8%D8%B1%20%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA%20%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3(4).pdf)

¹⁰ انظر: محمد الحاج سالم (محرراً)، السلفية الجهادية في تونس: الواقع والمآلات (تونس: المعهد التونسي للدراسات الاستراتيجية، 2014).

وقد أدى عجز المخططات الحضريّة في منطقة دوار هيشر، بشكل واضح، إلى تكريس دائرة الانغلاق والانزعال. يمكن ملاحظة ذلك عن طريق تواتر ذكر مشكل النقل العمومي في تعبير المشاركين.¹¹ ذلك أن ما يتوفر في منطقة دوار هيشر من وسائل للنقل العمومي لا تتناسب بتاتاً مع عدد السكان بالمنطقة ولا يلبي الحاجة الأساسيّة للتنقل السلس. فضلاً عن رفض سائقي سيارات الأجرة في أغلب الأحيان نقل الزبائن خشية التعرّض للسطو لما تتسم به المنطقة من وصم اجتماعي سلبي، (بصرف النظر عن مدى مطابقة هذا الوصم للحقيقة). وتجنباً لمطبات الطرقات المكسورة، وغير المهياة، خاصّةً في فصل الشتاء.

كل هذه العوامل تحدوا بالفئة الهشّة اقتصادياً إلى أن تستبعد المراكز الحضريّة المجاورة وترتكب شيئاً فشيئاً لدائرة مجالية ضيقة، ضمن أحياء غير مبرمجة، تتردّى فيها البنية التحتية والمرافق الحياتيّة، وفرص التعليم والتشغيل، وترتفع فيها نسب العنف التي تتخذ تمظهرات راديكالية مختلفة من الجنوح والجريمة إلى الراديكالية الدينية. في مقابل ذلك لم يقرّ بنجاعة البرامج المنفذة لتدعيم الأفاق التشغيلية من قبل الدولة والمجتمع المدني مجتمعاً إلا ما نسبته 19.5% من المشاركين. وهي النسبة نفسها التي حظيت بها البرامج المنفذة لتدعيم مقاربة التعليم.¹² وقد أفاد المشاركون في هذا الصدد بأن "تمركز سوق الشغل في العاصمة وصعوبة التنقل وعدم ضمان وسائل النقل من طرف المشغلين، سواء من القطاع العام أو القطاع الخاص يوّد نقمة اجتماعية، من شأنها أن تغذي الظواهر العنيفة".¹³

وإضافةً لضعف المخططات الحضريّة بالمنطقة ودورها في العزلة الجغرافيّة، نلاحظ تشكل عزلة ثانية ذهنيّة/نفسية أي في مستوى تمثّل المجال الجغرافي للفئات المستبعدة. إذ عبّر المشاركون خلال تقييمهم لمشروع الشركة الحديدية السريعة RFR الذي استلزم بناء جدار على طول السكة للحماية من الحوادث، عن رفضهم لهذا الجدار الذي سموه "الجدار العازل" في استحضارٍ نفسيٍّ للعزلة.¹⁴ مثلما اعتبروا تعطلّ الأشغال المتعلقة بالممرّ العلوي للسيارات (البرتقال/القباعة)، عاملاً معمّقاً لعزلة المنطقة، رغم إقرارهم بأهمية المشروع.

ويبقى أهم عاملٍ مؤدّ للاستبعاد الدّاتي فيما أفصح عنه عديدٌ من المشاركين، خاصّةً من فئة الشباب، هو العامل المتعلق بالتعامل الأمني، عندما "يُضبط" أحد شباب المنطقة متجولاً في العاصمة أو في أحد الأحياء "الراقية" ويضطرّ لتبرير وجوده خارج حيّه،¹⁵ وربما للالتزام الشفوي بعدم معاودة الكرّة في مراكز الشرطة.

وتتوّج هذه العزلة المجالية بعزلة لهجوية، ذلك أن أبرز التعبيرات الاجتماعية المكّسة للعزلة المجالية هي ابتداء المنتمين للاستبعاد للهجة أو لـ"رطانة"،¹⁶ وهي أقرب ما تكون "لكلمات سر" بينهم "يتراطون" بها. والتّراطن كلام لا يفهمه الناس، وإنما هو مؤاظة بين اثنين أو جماعة، يجنح المستبعدون في هذه الحالة لابتداعه. وهو تجلّ كاملٍ للاستبعاد الدّاتي، حيث

11 مشارك/ة في حلقة النقاش المركزة للتحقق، دوار هيشر، 15 شباط 2019.

12 مشارك/ة في ورشة العمل، دوار هيشر، 19 تشرين الأول 2018 و3 تشرين الثاني 2018.

13 مشارك/ة في ورشة العمل، دوار هيشر، 3 تشرين الثاني 2018.

14 مشارك/ة في حلقة النقاش المركزة للتحقق، دوار هيشر، 15 شباط 2019.

15 مشارك/ة في ورشة العمل، دوار هيشر، 3 تشرين الثاني 2018.

16 يشفع انتباهنا لهذه النقطة لاستعمال الملاحظة بالمعايشة للمجتمع المدروس، حيث يتحوّل تموقع الباحث من تموقع المشاهد من الخارج، إلى تموقع المشاهد من الداخل لجملة الوضعيات التفاعلية للمجموعة أو للمجموعات موضوع الدرس. ويتقضي هذا المستوى من الملاحظة انخراطاً منهجياً في الفئة المدروسة وتشبعاً بثقافتها وبتقاليدها الشفهية، وفهماً للتعبير الجسديّة والإشارات والإيماءات، ويتمّ ربط كل ذلك بشبكة من العلاقات حيث يُفهم الجزء عن طريق علاقته بالكل. وما هو جدير بالذكر في هذا الصدد، أن عدداً من المشاركين (خلال حلقة النقاش المركزة للتحقق، دوار هيشر، 15 شباط 2019، وفي ورشة العمل، دوار هيشر، 19 تشرين الأول 2018 و3 تشرين الثاني 2018) وهم من فئة الشباب تحديداً، لا يمتلكون قدرة تعبيرية خارج "لهجتهم الخاصة"، ويبدلون جهداً للحديث باللهجة العادية وللتواصل مع بقية المشاركين.

تتحول اللّغة أو اللهجة من فعل تواصلٍ إلى وسيلة من وسائل الانغلاق الاجتماعي وتعبيرٍ عن العيش ضمن زمر مغلقة غير مستعدة للتواصل إلا فيما بينها. وهي ظاهرة بصدد الانتشار ويمكن ملاحظتها بشكل جليّ خاصة عند التحامها بسلوكيات الإدمان والجنوح.¹⁷ والأخطر من ذلك في مستوى ما يمكن أن نسميه الأمن اللغوي،¹⁸ هو التطبيع مع هذا التواضع الاستثنائي شيئاً فشيئاً إلى أن يغدو الأصل في الاستعمال اللهجوي هو الانغلاق وتقهر القدرات التعبيرية وتراجع الفعل التواصلي وتفشي حالة اللأمن اللغوي في ترجمة صريحة لحالات الاستبعاد المسلط والاستبعاد الذاتي.

2.1.3 في الاعتزال العقلي: المخدرات والجريمة

لا يمكن التعامل مع ظاهرة تعاطي المخدرات في منطقة دوار هيشر ومناطق الاستبعاد المشابهة باعتبارها سلوكيات فردية، بل يجب فهمها على كونها من أخطر الظواهر الاجتماعية المهددة للأمن الصحي من ناحية وحتى للسلم الأهلي من ناحية أخرى. تلتحم هذه الظاهرة بعدة عوامل أخرى تأثيراً وتأثراً، إذ يمكن ملاحظة أشكالها الأولى لدى فئة اليافعين في المدارس الابتدائية والإعدادية حيث تنتشر ظاهرة تعاطي المواد اللاصقة "colle forte"، وتلتحم بظاهرة التسرب المدرسي.¹⁹

في مرحلة ثانية من الإدمان يمكن ملاحظة انتشار ظاهرة تعاطي الكحول الطبيّ الخام وهي مواد ذات مخلفات صحية خطيرة. إضافة لانتشار الأدوية المخدرة، ويلتحم استعمالها بالخمول الاجتماعي وبالاستقالة من كل الأدوار الاجتماعية (العمل، العائلة، ...).²⁰

وتبقى ظاهرة الحبوب المهلوسة أخطر صنف من أصناف الإدمان اللافت للانتباه في السنوات الأخيرة. إذ إنّنا أمام ظاهرة تعاطي مواد مخصصة للاستعمال الطبي، أشهرها استعمالاً هي حبوب النشوة من الميثيلين ديوكسي ميثامفيتامين، مع رواج حديث عن غزو مادة الميثامفيتامين، يتم تهريبها واستعمالها حبوباً للهلوسة ليس بغرض التخدير فقط بل بغرض التغييب الكامل للحسّ والعقل في التحام مع مخزون العنف النفسي والنقمة الأمر الذي ينتج عنه الإقدام على عمليات إجرامية شنيعة ارتفعت نسبها بشكلٍ لافت وأصبحت تشكل ظاهرة اجتماعية مرتبطة باستهلاك أنواع معينة من الأدوية المهزّبة.²¹ وهو ما يطرح سؤالاً جدياً عن قنوات تهريب هذه الكميات الضخمة من الأدوية وطبيعة شبكات الفساد المشاركة في هذه العملية التدميرية.

¹⁸ يرجع الباحث صالح الاستعمال الأول لمفهوم الأمن اللغوي للسانية الفرنسية نيكول غوتيه، التي أوردته خلال بحثها عن مظاهر التعدد اللغوي في مجتمعات الخليط، وبالذات في تجمعات المهاجرين بفرنسا، حيث اعتبرت أن هذه التجمعات تشكل خطورة اللأمن اللغوي من منظور التواصل والانسجام المجتمعي. الباحث صالح، في الأمن اللغوي (الجزائر: دار دومة، 2010)، ص 43.

¹⁹ المنصف ونّاس، الانقطاع المبكر عن التعليم: دراسة ميدانية في المجتمع التونسي (تونس: مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، 2018)، ص 96.

²⁰ حلقة نقاش مركزة للتحقق، دوار هيشر، 15 شباط 2019.

²¹ أنظر: عبد الحفيظ الهرقام، "تونس: أي علاقة بين تجارة المخدرات والإرهاب؟" مجلة ليدرز العربية، 23 أيلول 2016.

<https://ar.leaders.com.tn/article/1171-%D8%A3%D9%8A-%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AE%D8%AF-%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B1%D9%87%D8%A7%D8%A8>

2.1.4 في التدين الموازي أو الاعتزال التديني

تعتبر منطقة دوار هيشر من أكثر المناطق التي شهدت انتشاراً واسعاً لظاهرة التطرف العنيف متعينة في السلفية الجهادية المتبنية للأعمال المادية، وهذا يرجع لكل العوامل السابق تحليلها. التي تفاعلت لتفرز إحساساً بالمهانة "الحقرة" وهي مفهوم مُفسر لارتفاع منسوب عداة شباب هذه الأحياء لكل المؤسسات الرسمية ومنها المؤسسة الدينية أو مؤسسة التدين الرسمي. حيث إن الانتماء لهذا التيار كان بمقتضى ارتفاع منسوب الشعور الجمعي وبمقتضى البحث عن أشكال الانتماء لأكثر التعبيرات رفضاً للواقع الاحتكاري الذي مارسه الدولة التسلطية على كل مجالات وحتى على الحقل الديني. ومن مظاهر هذا الاحتكار إحكام السيطرة البوليسية على مجالات الحقل الديني في تونس بوضعها تحت الرقابة المستمرة لوزارة الداخلية واتباع "سياسة تجفيف المنابع" التي بلغت ذروتها في أوائل تسعينات القرن الماضي حيث سعت السلطة السياسية إلى تعطيل إنتاج المعرفة الدينية "التقليدية" بذريعة التحديث.

كما كان التصييق على قنوات التلقي والتنشئة الدينية، وتتبع مظاهر التدين في المجال العام بغلق المساجد خارج أوقات الصلاة وتتبع المصلين "المواظبين على المساجد" ومنع الالتقاء والحجاب ومنع حلقات الذكر أو التدريس بالجوامع أو ملازمة الشيوخ. والسيطرة على خطب الجمعة وحجز الكتب الدينية وغيرها من الإجراءات الصارمة التي أنتجت حقلاً دينياً فارغاً و"فاقداً للمناعة المكتسبة".

ويمكن توصيف الاستراتيجية التي اتبعتها الدولة/السلطة السياسية خلال الفترة المذكورة، بأنها استراتيجية قائمة على "ثانية الاحتكار والتجفيف"، أي إن الدولة أو السلطة السياسية احتكرت قانونياً ومؤسسياً وحتى بوليسياً مجالات الحقل الديني ولم تتمكن في مقابل ذلك من إنتاج القيم الرمزية المقدسة أو من إدارة مجالات الحقل الديني إدارة تناسب بين العرض والطلب وتضمن حضور مفهوم الأمن الروحي.

وما نعنيه بـ فقدان المناعة المكتسبة للحقل الديني، هو أنه في ظل فراغه وعطالته يصبح متوفراً بالضرورة على كل شروط التقبل الاجتماعي للظواهر الدينية/التدينية السليمة منها والمعتلة على حدٍ سواء.²²

وقد اعتبر المشاركون في ورشة العمل،²³ أن ضعف مقاربة الأمن الروحي من أهم أسباب نشوء ظاهرة التطرف، وتمثل هذا الضعف حسب تعبيرهم في العناصر التالية:

- التأويل الخاطئ للنص الديني.
- نقص الوعي والثقافة الدينية.
- انعدام التوازن النفسي/التديني.
- الفراغ الديني الناتج عن تجفيف منابع التدين الوسطي المعتدل.
- انتشار ظاهرة "شيوخ الفتنة" في مقابل "تغيب علماء الدين".

²² أبو يعرب المرزوقي، "تجفيف المنابع: معركة شعب الشباب لانتخاب الأحزاب"، تونس، 2015

<https://abouyaarebmarzouki.wordpress.com/2015/10/18/%D8%AA%D8%AC%D9%81%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%A7%D8%A8%D8%B9-%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%83%D8%A9-%D8%B4%D8%B9%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A8-%D9%84%D8%A7-%D9%86%D8%AE%D8%A8/>

²³ مشاركة في ورشة العمل، دوار هيشر، 3 تشرين الثاني 2018.

في مقابل ذلك لم تحطّ برامج "الأمن الروحي" المطبقة في منطقة دوار هيشر بتقييم إيجابي، بل لم تتجاوز نسبة القبول الإيجابي 12.5%.

نعتبر بناءً على ما سبق، أنّ الانغلاق الاجتماعي ما هو إلا نتيجة حتمية للسياسات الاستيعادية للدولة التسلطية. وما الاستبعاد إلا نتيجة لضعف وهوان مقاربات الأمن الانساني المذكورة (الأمن الشخصي، الأمن الحضري، الأمن الصحي والنفسي، الأمن الروحي والأمن اللغوي). وأنّ فرط الاستبعاد المسلط يوّلّد استبعاداً ذاتياً. وأن تفاعل الاستبعاد المسلط والاستبعاد الذاتي ينتج بيئة انعزالية مولّدة للتوترات الاجتماعية، ممّا يجعلها بيئة ملائمة لاحتضان ظاهرة التطرف العنيف.

3. التوصيات

- خلق دفع اقتصادي بالمنطقة وتحقيق مثال اقتصادي ناجح ونموذجي يقتدي به المتساكنون، عبر نشر ثقافة الاقتصاد التضامني والاجتماعي وتشجيع مؤسساته الناشئة، والقيام بدورات تكوينية (تدريبية) في مجالات ريادة الأعمال وبعث المؤسسات الصغرى والمتوسطة وآليات التواصل والتسويق. وتوفير فرص للتعريف بهذه المشاريع وتمييزها في الملتقيات والمعارض الوطنية والدولية.
- كسر العزلة عن المنطقة بإحداث عمليات توأمة داخلية جادة وفاعلة مع مناطق أخرى من البلاد عبر تكريس التبادل بين الجماعات المحلية والبلديات وتعزيز التعاون بينها. والسعي لإيجاد علاقات توأمة خارجية تفتح جسوراً إنسانية وثقافية واقتصادية مع مناطق أخرى من الدول الشقيقة والصديقة، وذلك عن طريق تكثيف الزيارات من الجانبين، وعقد شراكات واتفاقيات اقتصادية تنموية تُمكن من توفير السيولة ومن الحصول على تمويلات ومنح، وتفتح مجال الاستئناس بالتجارب المقارنة والقيام ببحوث مشتركة للنهوض بالمنطقة وتجاوز العقبات الموجودة فيها.
- مجابهة ظواهر العنف والتسرّب المدرسي من خلال إشراك مختلف فعاليات المجتمع المدني في القيام بحملات توعية ومصاحبة واسعة تشمل التلاميذ والأولياء على حد سواء وتسد عمل الإطار التربوي والإطار شبه التربوي. مع خلق مناخ مدرسي جاذب للباحثين من خلال توفير المنح واللوازم المدرسية وإحياء النوادي بالمؤسسات التربوية (موسيقى، مسرح، سينما، فلاح، شعر، رياضة) وتكثيف الرحلات المدرسية والزيارات الميدانية للمعالم التاريخية والثقافية. والعمل على تطوير وتركيز المقاربات التشاركية المدمجة في العملية التعليمية.
- فتح حوار على مستوى المؤسسات المعنية بالتخطيط الاستراتيجي (المعهد التونسي للدراسات الاستراتيجية، وهاكل الدراسات الاستراتيجية برئاسة الحكومة) والوزارات ذات العلاقة (وزارة التربية، وزارة الشؤون الثقافية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي) ومراكز الدراسات الرسمية والمجامع العلمية (المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، ومركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية) حول ضرورة العمل على تطوير سياسة السنة عبر المرور بمنهجية التخطيط الألسني،²⁴ التي تتطلب دراسة الاحتياجات والأهداف والوسائل وضع خطط العمل انطلاقاً من دراسة المشكلات التي تواجه الاستعمال اللغوي واللهجوي، وتحديد أهدافاً دقيقاً. سواء أكانت مشكلات ذات طبيعة لغوية بحتة، كتوليد المفردات وتحديثها أو مشاكل سوسيو-لغوية تتطلب الإلمام

²⁴ ميشال زكرياء، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية (بيروت: دار العلم للملايين، 1993).

بالعوامل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ذات المساس بطبيعة استعمال اللهجة وتحولها من أداة انسجام اجتماعي إلى أداة انغلاق اجتماعي.

– تغطية الفجوة الدينية بين مستويات العرض والطلب الديني، وتوحيد الخطاب الديني في مستوى التزامه "بتعاليم الإسلام ومقاصده المتّسمة بالفتّح والاعتدال، وبالقيم الإنسانية ومبادئ حقوق الإنسان الكونية السامية، واستلهامه من الرصيد الثقافي المتعاقب على تاريخ البلاد التونسية ومن حركاتها الإصلاحية المستنيرة ومكاسبها الوطنية المستندة إلى مقومات الهوية العربية الإسلامية وإلى الكسب الحضاري الإنساني." ²⁵ عبر خلق مجالات تفاعلية بالمؤسسات الدينية تجعل الخطب والدروس أكثر قرباً من النوازل المحلية وأكثر تعبيراً عن مشاغل المتساكنين الحقيقية. وهو ما يستلزم تطوير الطرق التواصلية للفاعلين الدينيين من وعاظ وأئمة وخطباء ومؤدبين ضمن رؤية إستراتيجية شاملة لتطوير الخطاب الديني تقوم عليها وزارة الشؤون الدينيّة، باعتبارها المخوّل الرسمي لإدارة المجال الديني، ويتم تنزيلها بالتعاون مع الرابطة الوطنيّة للقرآن الكريم باعتبار توزعها الواسع على تراب الجمهورية حيث يبلغ عدد فروعها 24 فرعاً جهوياً، وأكثر من 500 فرعاً محلياً في المدن والقرى تحت إشراف الفروع الجهوية التابعة لها. ²⁶

– رسم استراتيجية وطنية لمكافحة المخدرات والإدمان وتهريب الأدوية بطريقة تشاركية وواقعية توضع لها معايير علمية للمتابعة وللتقييم، إضافة إلى ضرورة تفعيل وتكثيف مراكز معالجة الإدمان وإعادة التأهيل والإدماج وجعلها أكثر مرونة، بالانفتاح على آليات ووسائل العمل الحديثة التي تتماشى مع خصوصيات المناطق والفئات المستفيدة. ويتم تنزيل ذلك عبر إحداث وتطوير شبكة علاقات متينة بين مختلف الفاعلين والمتدخّلين من سلطات أمنية ومؤسسات صحية وتربوية ومكونات للمجتمع المدني ومواطنين لضمان اتباع صيرورة إدماجية ناجعة وغير مسقطه.

– إقرار الحكومة حواراً مجتمعياً لتطوير الجهاز الأمني وإصلاح العلاقة مع المواطن بالتركيز على مستويين جوهريين، يتعلق الأول بنظرة المواطن للجهاز الأمني ككل ولأعوان الأمن خصوصاً والتي تنسم بانفصام يصل حدّ العداء، ويتعلق الثاني بسلوك الجهاز الأمني في علاقته بالمواطن المستوجب لضرورة احترام الإجراءات القانونية الكفيلة بضمان حقوق الإنسان من قبيل الحرمة الجسدية وحرية التنقل وحق الدفاع والاستعانة بمحامٍ وحرمة المسكن والحق في التنظيم والتظاهر والإضراب والحق في التعبير وغيرها من الحقوق الأساسية.

²⁵ من توطئة دستور الجمهورية التونسية لسنة 2014، بتصرف.

²⁶ ماهر الزغلامي، تدبير الحقل الديني في تونس بين الواقع الاجتماعي والبناء الاستراتيجي، دراسة جامعية محكمة بصدد النشر.



www.wana.org

غرب آسيا وشمال أفريقيا

هاتف: +٩٦٢٦٥٣٤٤٧٠١ | info@wana.jo | الجمعية العلمية الملكية، ٧٠ أحمد الطراونة ، عمان، الأردن

www.wanainstitute.org